الإمام وفلسطين :

دراسة في رؤية الإمام الخميني (قده) لقضية الصراع الإسلامي مع التجمع الصهيوني في فلسطين

د. رفعت سيد أحمد

مدير مركز يافا للدراسات والأبحاث

المنسق العام للجنة العربية لمساندة المقاومة الإسلامية في لبنان ـ القاهرة

بين يدي البحث

لا يستقيم الحديث عن «فلسطين»، القضية، والأرض، والمقاومة، خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من تاريخها، دون الحديث عن الإمام الخميني وجهاده في سبيلها، فكراً، وسلوكاً.

لقد كان الإمام، بوعيه الرسالي، وإيمانه الصادق، بوصلة المجاهدين الجادين، ناحية فلسطين، مثلما كان بوصلتهم ناحية قيم الحق، والعدل والثورة. كان «الإمام» قبل ثورته الإسلامية عام ٧٨/ ١٩٧٩م يضع أمام رجاله البررة من أبناء الشعب الإيراني المسلم، المعادلة في أبسط وأعمق صورها. لقد كان يربط بين مواجهة الوجود الصهيوني في فلسطين، وبين صحة إيمان المسلم وصدق إخلاصه للّه. لقد جعل من مواجهة إسرائيل، ذلك التجمع السرطاني الخبيث في فلسطين، مواجهة أخرى للشاه المستبد، وربط بعبقرية المعلم المجاهد بين «الإستبداد والإحتلال» من ناحية «وبينهما وبين الشيطان الأكبر» من ناحية أخرى، وجعل الجميع في سلة واحدة ومعادلة واحدة لا انفصال بين أي من عناصرها.

إن الدعم الواسع، المادي والمعنوي، الذي أولاه الإمام لفلسطين، ولكل الحركات

التي قاتلت داخل فلسطين وحولها، سواء في السنوات العشر الأخيرة في عمر الإمام (٧٩- ١٩٨٩)، يؤكد مركزية هذا «الوطن الإسلامي»، وتلك «القضية الإسلامية» في مدركات الإمام، وحركيته، وكيف أنه استطاع أن ينقلها إلى المخلصين الشرفاء من رجاله ومحبيه من المسلمين، داخل إيران وخارجها، وكيف علمهم أن لا انفكاك البتة بين مواجهة «الإستبداد»، ومواجهة الإحتلال في فلسطين، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا حرب الردة التي شنها النظام العراقي على شعبنا في إيران والعراق- معاً- ولمدة ثماني سنوات، لكانت «فلسطين»، القضية والوطن والمقاومة، في موقع أكثر علِيّا، بفضل دعم الإمام وثورته ودولته لها، ولكنه فعل «الشيطان الأكبر» -الولايات المتحدة- حين تزاوجت روحه ومصلحته مع الشياطين الصغيرة في أوطاننا، فأنتجت الحروب الجانبية، والإستنزاف الدائم لثورات الأمة وثرواتها!!.

إن الحديث إذاً عن (فلسطين)، لا يستقيم دون الحديث عن (الإمام)، والحديث عنهما معاً، هو الحديث الصحيح عن أمة الإسلام حين ترغب في النهوض والتحرر، فلا نهوض بغير (فلسطين) ولا تحرر بغير فلسفة الإمام وحركيته.

* * *

وفي هذا البحث نحاول أن نقترب من تلك الثنائية الثرية، (الإمام وفلسطين)، اقتراباً يناسب واقعنا، ويتجاوزه، بتصورات للمستقبل، للمواجهة، ولا يقف عند مجرد التعامل النصي الماضوي مع القضية، وعليه فسوف نقسم بحثنا إلى أربعة محاور على النحو التالي:

أولاً: فلسطين في عقل الإمام.

ثانياً: فلسطين التي تصفى قضيتها اليوم: أرقام ودلالات.

ثالثاً: الإمام في فلسطين: حركة الجهاد وحزب الله الترجمة الحقيقية المعاصرة للإمام في فلسطين.

رابعاً: كيف نحيي رسالة الإمام في فلسطين مع الألفية الميلادية الثالثة.

أولاً: فلسطين في عقل الإمام:

إن هذا الإمام الثائر، الإمام الخميني، الذي كان يرى في الولايات المتحدة شيطاناً أكبر، وأثبتت لنا الأيام والأحداث التي عشناها ونعيشها، صدق قوله، ها هو الآن يرى في الكيان الصهيوني «غدة سرطانية»، تحتل كبد الأمة: فلسطين، ترى كيف نظر الإمام إلى تلك القضية وكيف أدار الصراع فيها؟!.

تميزت رؤية الإمام الخميني للقضية الفلسطينية بعدة خصائص يمكن استخلاصها من خلال تناول هذه الرؤية في:

أ- مدركات الإمام الخميني لطبيعة الصراع مع (الكيان الإسرائيلي): يلاحظ الباحث أن الإمام أدرك طبيعة الصراع مع الكيان الصهيوني بثلاثة معان: المعنى الأول: أنه صراع مصيري، أي لا بد من تدمير أحد طرفيه، المعنى الثاني: أنه صراع ديني بين المسلمين واليهود. المعنى الثالث: أنه صراع متعدد الأطراف، والشاه وكل الحكام المستبدين في العالم الإسلامي وأميركا يمثلون أهم أطرافه، وقد تتداخل المعاني معاً ويصعب الفصل بينها.

وبالرغم من ذلك ،فبالنسبة لمصيرية الصراع: نجد الإمام يرى أنه «مما لا ريب فيه أن واجب الشعب الفلسطيني المسلم هو واجب كل مسلم في أقاصي البلاد، فالمسلمون يد واحدة على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم» وهو دائماً يكرر على قطع الأيدي الأجنبية، وفي أغلب خطبه يؤكد على الإجتثاث من الجذور. ولأنه صراع مصيري فهو يعتبر اتفاقات كامب ديفيد «خيانة للإسلام والمسلمين والعرب».

وبالنسبة للمعنى الثاني، أي المحتوى الديني للصراع، فإن الإمام لم يقل فقط، بل كان يفعل أيضاً، فلقد حدد فور انتصار الثورة عام ١٩٧٩ آخر يوم جمعة من شهر رمضان من كل عام باعتباره «يوم القدس» وجعله احتفالاً عالمياً للقدس، وأرسل بالدعم المادي من أسلحة وأفراد إلى المقاومة اللبنانية في الجنوب، التي في طليعتها «حزب الله» ويأتي ذلك من قناعته بأن المعركة أساساً بين المسلمين واليهود

وأنه «لا ينبغي على المسلمين ترك شعب لبنان أو فلسطين وحده يقاتل بل لا بد من مساندته»، بل لقد وصل بثوريته في هذا الشأن إلى درجة أنه «طالب بعدم تجديد بناء المسجد الأقصى»، ليترك كما هو تجسيداً لجرائم الصهيونية دائماً أمام أنظار الأمة الإسلامية، وكنقطة انطلاق شاملة نحو استرداد الأراضي الإسلامية الفلسطينية».

وبالنسبة لأطراف الصراع، كمعنى ثالث من معاني إدراك الإمام لطبيعة الصراع مع اسرائيل، فنجد الخميني يدرك أنها متعددة سواء من حيث النشأة أو التطور فهو يرى «أن إسرائيل وليدة التواطؤ والإتفاق» بين الدول الإستعمارية في الشرق والغرب، وخلقت لقمع الدول الإسلامية واستعمارها، وهي اليوم تحت حماية كل المستعمرين ومجال تأييدهم، وليس هدف الدول الإستعمارية الكبرى من خلق إسرائيل هو «احتلال فلسطين فحسب»، «لكن لو أعطيت لهم الفرصة فسوف يكون لكل الدول العربية نفس مصير فلسطين أي الإحتلال المستمر» والمواجهة لا بد أن تتعدد فيها الأطراف أيضاً، «لا بد أن يكون هناك دور للمسلمين وللمستضعفين في العالم ولكل المضطهدين من أميركا والغرب في هذه المواجهة على أرض فلسطين».

ب ـ مستويات إدارة الصراع مع الكيان الصهيوني عند الإمام الخميني: أما بالنسبة لهذا المستوى فإن الباحث يلاحظ أنه لا يوجد سوى مستوى الكفاح المسلح (الجهاد) والحرب الشعبية الطويلة الأمد، ويتضح ذلك في تحليل جميع خطب الإمام تجاه «إسرائيل»، فالباحث لم يجد لديه أي محاولة لإدخال مستوى جديد على مستوى الكفاح المسلح أو الجهاد بمعنى أدق...، مثل مستوى الأداة الدبلوماسية أو الصراع السياسي أو توزيع الأدوار بين السياسة والحرب. إن اللغة السائدة في الخطاب السياسي للإمام هي لغة الحرب، ولا توجد لغة أخرى يمكن استشرافها، فهو مثلاً في النداء الذي وجهه بمناسبة مرور ٢٥ عاماً على الثورة الجزائرية في ٢/ ١٠/ ١٩٧٩ يقول «ونحن ندين بشدة المؤامرة المصرية – الأميركية –

الإسرائيلية – الهادفة إلى ضرب حركة الشعب الفلسطيني الكبرى، أيها الرؤساء والممثلون للدول الإسلامية المجتمعون في الجزائر العزيزة تعالوا لنتحد ونقطع أيدي الجناة الشرقيين والغربيين وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل وأن نجتثها من جذورها لإرجاع حقوق الشعب الفلسطيني».

وفي ندائه إلى حركات التحرير العالمية في ١٥/ ١١/ ١٩٧٩ يقول لهم: «إنهضوا ودافعوا عن كيان الإسلام وعن شعوبكم وأوطانكم، فإسرائيل قد أخذت بيت المقدس من المسلمين» وهو يدعو المسلمين إلى «أن ينهضوا ويدافعوا عن الإسلام وعن مركز الوحي بالكفاح المسلح».

هذه الرؤى المتكاملة، الواعية، للصراع، طبيعة وإدارة، ترجمها الإمام عملياً في سلوكه السياسي الداعم للمجاهدين في الجنوب اللبناني وداخل فلسطين المحتلة، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشهيد القائد د. فتحي الشقاقي – رحمة الله عليه – الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين كان التجسيد الإسلامي «السني» الصحيح والواعي، لفكر الإمام الخميني وفلسفته تجاه فلسطين، كما سنرى.

جـ ـ من كلماته عن فلسطين والقدس والمواجهة: لعل في إعادة تأمل كلمات الإمام الخميني عن قضية فلسطين بكل أبعادها ومستوياتها ما قد يفيد اليوم في المواجهة لهذا المشروع الصهيوني المزروع بداخلها. ولنتأمل معاً هذه الأقوال الخالدة:

١ـ «إن قبلة المسلمين الأولى – اليوم – بيد إسرائيل، هذه الغدة السرطانية التي زُرعت في الشرق الأوسط. إن إخوتنا الأعزاء في فلسطين ولبنان يتعرضون اليوم للإبادة والقتل بكل شدة من قبل إسرائيل. تسعى إسرائيل اليوم بكل ما أوتيت من وسائل شيطانية لخلق التفرقة بيننا، على كل مسلم أن يجهز نفسه لمقاتلة إسرائيل.

إنَّ الدول الأفريقية المسلمة تئن اليوم تحت وطأة أمريكا وبقية الأجانب وعملائهم. ترفع أفريقيا المسلمة اليوم صوتها المظلوم إلى أعلى حد، وإن فلسفة الحج يجب أن تكون جواباً لهذه النداءات المظلومة.

إنَّ الطواف حول بيت الله يعلمكم (وينذركم) أن لا تطوفوا حول غير الله، وإن رجم الشيطان رمز لرجم شياطين الإنس والجن.

حينما ترجمون الشيطان عاهدوا ربكم على طرد كل شياطين الانس والقوى الكبرى من بلادكم الإسلامية العزيزة.

إعلموا أن العالم الإسلامي اليوم أسير بيد أمريكا.

احملو من ربكم نداءً إلى المسلمين في كل قارات العالم، وذلك أن لا يعبدوا أحداً غير الله.

أيها المسلمون في العالم ويا أتباع مبدأ التوحيد، إنَّ سبب كل المشكلات في البلاد الإسلامية هو اختلاف الكلمة وعدم التعاون، ورمز الإنتصار هو وحدة الكلمة وإيجاد التعاون. قال تعالى في جملة واحدة ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾. (من بيانه في موسم الحج لعام ١٣٩٩هـ الموافق ٢٩/ ٩/ ٧٩ ميلادية).

٢ ـ «لقد نبهت المسلمين منذ سنوات طويلة لخطر إسرائيل الغاصبة التي شدّدت هجومها الوحشي على الإخوة والأخوات الفلسطينيين، وخصوصاً في جنوب لبنان لغرض إبادة المناضلين الفلسطينيين حيث تنهال القنابل باستمرار على بيوتهم ومساكنهم.

إني أدعو عامة المسلمين في جميع أرجاء العالم والدول الإسلامية أن يتّحدوا من أجل قطع يد هذا الغاصب ومساعديه. وأدعو جميع المسلمين في العالم أن يعلنوا آخر جمعة من شهر رمضان المبارك الذي يعتبر من أيام القدر ويمكنه أن يلعب دوراً مهماً في مصير الشعب الفلسطيني «يوم القدس» وأن يعلنوا ضمن مراسم هذا اليوم اتحاد المسلمين بجميع طوائفهم في الدفاع عن الحقوق القانونية للشعب الفلسطيني المسلم.

أسأل الله تعالى أن ينصر المسلمين على الكافرين. والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته». (حديثه في ٢٠ رمضان عام ١٣٩٩هـ).

٣ ـ وفي ما يلي النص الكامل لبيانه بشأن يوم القدس العالمي والصادر في ٢٢/

رمضان ١٣٩٩هـ ولأهميته البالغة فكراً ومعنى نورده كاملاً:

«إنَّ يوم القدس يوم عالمي، وليس يوماً يخصّ القدس فقط بل هو يوم مواجهة المستضعفين للمستكبرين..يوم مواجهة الشعوب التي رزحت تحت ضغط الظلم الأمريكي وغير الأمريكي، يوم يجب فيه أن يستعد المستضعفون لمواجهة المستكبرين ويمرّغوهم في التراب، يوم يمتاز فيه المنافقون عن الملتزمين. فالملتزمون يعتبرون هذا اليوم، «يوم القدس» ويعملون بما يجب أن يعملوا به. وأما المنافقون والمرتبطون مع القوى العظمى خلف الستار والذين يعقدون الصداقة مع إسرائيل، فلا يهتمون بهذا اليوم ويمنعون الشعوب من إقامة التظاهرات. إنَّ يوم القدس يوم يجب أن يتعين فيه مصير الشعوب المستضعفة. لا بد للمستضعفين أن يبرزوا شخصيتهم أمام المستكبرين. وكما قال الشعب الإيراني وأرغم أنوف المستكبرين، فلتقم سائر الشعوب وتلقِ بهذه الجراثيم المفسدة في المزابل. إنّ يوم القدس هو اليوم الذي لا بد من أن ينتبه فيه بقايا النظام السابق في إيران والعناصر المخربة التابعة للأنظمة الفاسدة والقوى العظمى في سائر البلدان وخصوصاً في لبنان ويحسبوا حسابهم.

إنه اليوم الذي يجب أن ينهضوا وننهض فيه لإنقاذ القدس وإنقاذ إخواننا اللبنانيين من هذا الظلم. إنه اليوم الذي يجب أن نخلّص فيه جميع المستضعفين من قيود المستكبرين، يوم يجب أن يظهر المجتمع الإسلامي شخصيته فيه ويهدد القوى العظمى وعملاءها المتبقين في إيران أو سائر البلدان. إنَّ يوم القدس هو اليوم الذي يجب أن ننبه فيه هؤلاء المثقفين الذين يعقدون العلاقات خلف الستار مع أمريكا وعملائها، ننبههم بأنهم لو لم يتركوا هذه التحرشات فإنهم سوف يقمعون، وإنا قد أمهلناهم وعاملناهم بلطف لعلّهم يتركون الأعمال الشيطانية، وإن لم يتركوها فسوف أقول فيهم كلمتي الأخيرة، وسوف أشعرهم أن النظام السابق لن يعود ولا يمكن بعد هذا أن تتحكم فينا أمريكا أو سائر القوى العظمى.

يجب أن نعلن لجميع القوى الكبرى في يوم القدس أن يرفعوا أيديهم عن

المستضعفين ويلزموا أماكنهم. إنَّ إسرائيل عدوة البشرية وعدوة الإنسان وفي كل يوم تخلق فاجعة وتحرق إخواننا في جنوب لبنان. إنَّ على إسرائيل أن تعلم أنَّ أسيادها قد خسروا موقعهم الإجتماعي في العالم ولا بدّ لهم من الإنزواء، ولا بدّ لهم من قطع أطماعهم في إيران، ويجب أن يُمنعوا من التدخل في جميع البلاد الإسلامية. إنَّ يوم القدس هو يوم إعلان هذا الأمر وإعلان أن الشياطين يحاولون إخراج الشعوب من السّاحة لفسح المجال لتدخّل القوى الكبرى. إنّ يوم القدس هو اليوم الذي تُقطع فيه آمالهم وينتبهون الى أن ذلك الزمان قد ولّى.

يوم القدس هو يوم الإسلام ويوم إحياء الإسلام، فلا بد من إحيائه وتنفيذ قوانينه وأحكامه في جميع الأقطار الإسلامية. يوم القدس ننبِّه فيه القوى العظمى بأن الإسلام لن يقع بعد هذا تحت سلطتكم بواسطة عملائكم الخبثاء. يوم القدس يوم حياة الإسلام، ولا بد أن يستيقظ فيه المسلمون ويشعروا بقدرتهم المادية والمعنوية.

إنّ المسلمين يبلغون مليار نسمة وينعمون بالتأييد الإلهي والإسلام يحميهم والإيمان يدافع عنهم فمن أي شيء يخافون؟ إننا قد نهضنا مع قلّة عددنا أمام أعدائنا الكثيرين والقوى العظمى وهزمناهم. ولا تظنوا أن بعض هذه الطوائف الفاسدة، بعض هؤلاء اليساريّين الأمريكيين وغير الأمريكيين يتمكنون من إبراز وجودهم في البلد. فنحن إذا أردنا وأراد شعبنا فإنهم سيُحذفون جميعاً في مزابل الفناء خلال ساعات. وأن شعبنا العظيم لن يخاف من هذه التحركّات اليائسة، إنَّ تحركات إسرائيل في جنوب لبنان وبالنسبة إلى الفلسطينيين أيضاً تحركات يائسة. إنها تحركات الفاسدين في نهاية أمرهم، كما صنعه الشاه المخلوع في إيران وانتهى بهلاكه وفنائه.

ولتعلم الحكومات في العالم أن الإسلام لن ينهزم، وأن الإسلام وتعاليم القرآن لا بد أن تتغلّب على جميع الدول ولا بد أن يكون الدين هو الدين الإلهي. إنَّ الإسلام هو دين الله ولا بد أن ينتشر في الأقطار الإسلامية. إن يوم القدس يوم إعلان هذا

الأمر. إنه يوم إعلام المسلمين: إلى الأمام، تقدموا في جميع أقطار العالم.

يوم القدس ليس يوم فلسطين فحسب. إنَّه يوم الإسلام، يوم يجب أن ترفرف فيه راية الجمهورية الإسلامية في جميع الأقطار. يوم نعلن فيه للقوى العظمى أنها لن تتمكن من التقدم في البلاد الإسلامية.

إني أعتبر يوم القدس يوم الإسلام ويوم الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم) ويوم لا بد لنا فيه من تجهيز القوى وإخراج المسلمين من الانزواء ومواجهة الأجانب بكامل قوتهم وقدرتهم. ونحن نقاوم الأجانب بكل قوانا ولن نسمح للآخرين بالتدخل في أقطارنا ولا يجوز للمسلمين أن يسمحوا لغيرهم بالتدخل في شؤون بلادهم.

وفي يوم القدس لا بد أن تحذر الشعوب حكوماتها إذا كانت خائنة. وفي يوم القدس نتعرف على الأشخاص والأنظمة التي تتوافق مع المخربين العالميين والتي تخالف الإسلام. فالذين لا يشاركون في مراسم هذا اليوم مخالفون للإسلام ومؤيدون لإسرائيل، والمشاركون فيها ملتزمون وموافقون للإسلام ومخالفون لأعدائه وعلى رأسهم أمريكا وإسرائيل. في يوم القدس يمتاز الحق من الباطل وينفصل الحق عن الباطل.

وإني أسأل الله تبارك وتعالى أن ينصر الإسلام على جميع الطوائف في العالم وينصر المستضعفين على المستكبرين. كما أسأله تعالى أن ينقذ إخواننا في فلسطين وفي جنوب لبنان وفي كل أرجاء العالم من ظلم المستكبرين والناهبين. والسلام على رسول الله وعلى أئمة المسلمين». (٢٢ رمضان ١٣٩٩هـ).

ثانياً: فلسطين التي تصفى قضيتها اليوم ـ أرقام ودلالات:

دأب فريق الصهاينة العرب (من حكام وثوار سابقين) على تلخيص فلسطين في كونها مجرد اتفاق حكم ذاتي وممر آمن وعلم وبساط أحمر في مطار أو ميناء لا سيادة عليه، فلسطين تلك غير فلسطين التي نعلم وغير فلسطين التي عنها دافع

الإمام الخميني وقاتل، فلسطين فضلاً عن كونها قضية مقدسات وتاريخ وعقيدة فهي أيضاً قضية شعب أحبه الإمام الخميني مثلما أحب الشعب الإيراني. ماذا عن هذا الشعب وذلك البلد، ماذا عن عذاباته، ماذا عن «المستوطنات» التي زرعت فوق جسده؟ ماذا عن أبنائه الذين أجبروا على أن يعملوا كعبيد لدى الاقتصاد الإسرائيلي لكي يحصوا على لقمة العيش المُرة في الوقت الذي ينعم فيه عرفات وقادة الخليج وقادة العرب بالثراء الفاحش والفساد الأكثر فحشاً؟ ماذا عن فلسطين التي تصفى قضيتها؟ نوجز كل هذه الأسئلة «التي كانت من قبل مسلمات فأضحت اليوم «مستغلقات» بحاجة إلى من يعيد تأكيدها وشرحها وفقاً لاحصائيات عام ١٩٩٩ في النقاط التالية.

١ ـ **الشعب**: يقدّر عدد الفلسطينيين في العالم بأكثر من ١٠,٥ ملايين، منهم قرابة ٣ ملايين في الضفة والقطاع، ١,١ مليون ما يسمَّى عرب إسرائيل، و٣,٣ ملايين في الأردن، وقرابة نصف مليون في سوريا، ومثلها في لبنان، ودول الخليج العربي، وبقية الدول العربية، كما يعيش في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا وبقية دول العالم قرابة ٧٧٠ ألف فلسطيني.

٢ ـ **الأرض**: يعيش هذا الشعب المجاهد المطارد، داخل فلسطين في مساحة تصل إلى ٢٧ ألف كلم٢ تتوزع كالتالي (اليوم ١٩٩٩): تبلغ مساحة الضفة الغربية وقطاع غزة ٦١٦٧ كم٢، مشكلة نسبة ٢٢٪ من مساحة فلسطين، حيث تبلغ مساحة الضفة الغربية ٥٨٢٢ كم٢، بطول ١٣٠ كلم وعرض يتراوح بين ٤٠ – ٦٥ كم، في حين تبلغ مساحة قطاع غزة ٣٦٥ كلم٢، بطول ٤٢ كلم وعرض يتراوح بين ٥ و ١٢ كلم، وتتباين طبوغرافية الأرض الفلسطينية من جبال صخرية عالية ترتفع عن مستوى سطح البحر بأكثر من نصف كيلو متر، تتوزع في قضاء الخليل ورام الله ونابلس، وهناك أكثر المناطق العالمية انخفاضاً عن سطح البحر في أريحا ونهر الأردن ومنطقة البحر الميت، حيث يزيد الانخفاض عن نصف كلم أيضاً، كما توجد

السهول الساحلية على شاطىء البحر المتوسط في قطاع غزة.

ووفق التباينات السابقة، تختلف الاستخدامات لهذه الأرض بين الزراعة والمناطق السكنية، والمراعي والغابات والمناطق الشجرية، إلى الكثبان الرملية والجبال الصخرية وغيرها وفق الجدول التالي:

جدول توزيع الأراضي الفلسطينية حسب الاستخدام (نسب مئوية)[1]

طبيعة الاستخدام	الضفة الغربية	قطاع غزة
مساحة الأرض كم٢	٥٨٢٢	٣٦٥
المساحة تحت إدارة س وف*	٣٪	٥٤٪
أرض زراعية	٣٥٪	٤٩٪
غابات ومناطق شجرية	١١٪	٣,٣٪
مراعي	١٢٪	–
كثبان رملية	–	٢٥,٧٪
مناطق سكنية	١٦٪	٢١٪
طرق ومنافع خدمية	٢٪	١٪
جبال صخرية	٢٤٪	–
المجموع	١٠٠٪	١٠٠٪

(١) مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الأنكتاد) ـ الاقتصاد الفلسطيني وآفاق التعاون الإقليمي جنيف، ١٩٨٨.

* وزارة التخطيط ـ فلسطين. ملف التنمية البشرية ٩٦ـ٩٧، غزة رام الله. مايو ١٩٩٨، ص ١١ـ١٥.

ويتضح من الجدول السابق ضآلة الامكانيات المتاحة لانطلاقة تنمية مستدامة، خاصة إذا أدركنا أن ما يسمى بالسلطة الفلسطينية تدير ٣٪ فقط من مساحة الضفة الغربية، متمثلة في المدن المكدسة سكانياً، وهي مساحة تبلغ ١٧٥ كلم٢، مقسمة إلى تسع محافظات (القدس، رام الله، نابلس، الجليل، بيت لحم، طولكرم، جنين، قلقيلية، أريحا)، كما تبلغ المساحة المدارة فلسطينياً في قطاع غزة ٥٤٪ من مساحة القطاع لتصل إلى ١٩٧ كلم٢ مقسمة إلى خمس محافظات إدارياً (غزة، المحافظة الشمالية، المعسكرات الوسطى، خان يونس، رفح)، والمساحة الباقية تتمثل في المستعمرات وطرق وحزام أمني إسرائيلي لهذه المستعمرات، ومن ثم لا تتعدى إدارة السلطة الوطنية الفلسطينية نسبة ٦٪ من إجمالي مساحة الأرض الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧.

ويستحوذ الكيان الصهيوني على مساحة ٩٤٪ من الأراضي الفلسطينية في الضفة والقطاع، سواء بالإحتلال المباشر لإقامة المستعمرات، أو لأغراض عسكرية أمنية، وهذه بلغت ٤٥٠٠ كلم٢ في الضفة والقطاع، بالإضافة إلى مصادرة الأراضي الفلسطينية بحجة الاستخدام العام لشق طرق، أو لإقامة مناطق خضراء، أو محميات طبيعية، وهذه بلغت ٦٠٠ كلم٢، ويتم أيضاً مصادرة الأراضي في ظل قواعد إسرائيلية أطلقت عليها أملاك «غائبون»، حيث استولت على ٧١٦ كلم٢.

٣ ـ المستعمرات: تعتبر المستعمرات الإسرائيلية في الأرض العربية تجسيداً لواقع أحلام الحركة الصهيونية، حيث غرس الصهاينة ٢٠٠ مستعمرة في الضفة والقطاع منذ عام ٦٧ وحتى الآن، منها ٢٨ في القدس العربية كحزام أمني مترابط يطوق المدينة المقدسة، و١٨ مستعمرة في قطاع غزة، تستحوذ على ٤٦٪ من مساحة الأرض بصفة مباشرة وغير مباشرة، ويسكنها قرابة ٦ آلاف يهودي، يشكلون أقل من ٥٪ من سكان القطاع، والباقي ١٥٤ مستعمرة متمركزة في مناطق استراتيجية في الضفة الغربية، ويسكنها قرابة ١٥٠ ألف مستوطن يهودي من المتطرفين، وإن كانت تعد لاستيعاب مليون مهاجر يهودي جديد.

وتغرس المستعمرات بعناية دقيقة، وفق خطط هادفة ومرحلية، استراتيجياً واقتصادياً، واعتبارات أمنية، لتكون متصلة بعضها مع بعض، ومتكاملة وقابلة للتوسع، ويتم اختيار مواقعها على المرتفعات والتلال، وتبرز الآثار السلبية للمستعمرات الإسرائيلية على الاقتصاد الفلسطيني في الاستيلاء المستمر على الأرض، واستنزاف المياه، إستغلال العمالة الفلسطينية، زراعياً وصناعياً وتجارياً، ومصادرة الحق في المستقبل الآمن للسكان الحقيقيين من الفلسطينيين.

(٤) العمالة الفلسطينية في الكيان الصهيوني: عمد الصهاينة منذ احتلالهم بقية فلسطين سنة ١٩٦٧ إلى استغلال القوى العاملة الفلسطينية، بهدف الآتي:

١- تشغيلها في الأعمال اليدوية الشاقة: كالبناء والمزارع والعتالة والنظافة.... إلخ، التي يعزف عنها اليهود.

٢- بناء القطاعات الإقتصادية الإسرائيلية، خاصة تفعيل المستوطنات.

٣- تحول العمالة الفلسطينية عن العمل في القطاعات الإنتاجية الفلسطينية، وبالتالي إهمالها، مما يزيد من حدة الإعتماد على المنتجات الإسرائيلية.

٤- الإستفادة من الرخص النسبي لأجور العمال الفلسطينيين مقارنة بالعمالة الإسرائيلية، حيث لا تتعدى ٣٠٪.

٥- إمتصاص القوى الفلسطينية وتحويلها عن مقاومة الإحتلال الإسرائيلي، بشغلهم بالقوت اليومي.

٦- كسب الأسواق الفلسطينية، فما يدفع كأجور للفلسطينيين يعود على الإقتصاد الإسرائيلي بربح مضاعف، إثر زيادة المشتريات من إسرائيل.

٧- توفير العمل للشباب والصغار لإبعادهم عن التعليم العالي والفني.

٨- لا يدفع المستخدم الإسرائيلي تأمينات ومعاشات ومصاريف أخرى للعمالة الفلسطينية، وحيث يقل العبء كثيراً مقارنة بالعامل الإسرائيلي، بل كثيراً ما يتجرأ المستخدم الإسرائيلي على التهام حقوق العمالة الفلسطينية.

وأمام عدم وجود فرص بديلة أمام القوى العاملة الفلسطينية، تدفقت على

الكيان الصهيوني تدريجياً، حتى بلغ عدد العاملين الفلسطينيين في إسرائيل ما يتراوح بين ١٥٠ و ١٧٠ ألف عامل مع نهاية الثمانينات، وبعد تغير الظروف السياسية والإقتصادية إثر حرب الخليج الثانية، وبداية الحصار والإغلاق الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية بسبب زيادة الإجراءات الأمنية، الى جانب زيادة العمالة الفلسطينية المطرودة من دول الخليج، تفاقمت الأزمة وقننت إسرائيل دخول العمالة الفلسطينية إليها، وزاد من حدة المعضلة لمنع العمالة الفلسطينية وجود السلطة الفلسطينية، لتؤكد إسرائيل وضع المعضلات أمام السلطة، ولتثبت فشلها في تشغيل العمالة، وأنه لا بديل من الإحتواء الإسرائيلي.

تلك هي فلسطين على حقيقتها المُرة اليوم، وإذا أضفنا إليها سلطة إدارية فاسدة تحكم وفق نمط بوليسي اقتبسته من الأنظمة العربية التي تعاملت ولا تزال معها، فإن الصورة تزداد وضوحاً وبؤساً، وإذا علمنا أن السيد ياسر عرفات وسلطته في غزة التي لا تعمل مستقلة بل وفق إرادة وشروط المحتل الذي تحميه من المجاهدين، لديه ١٣ جهازاً أمنياً على مساحة أرض صغيرة وشعب مجاهد لا يرفع السلاح إلا في وجه اليهود والصهاينة، ساعتها تستبين المأساة والملهاة أكثر، ولنتأمل ما لدى سلطة الحكم الذاتي من أجهزة أمن:

(١) الشرطة (٢) المخابرات العامة (٣) الإستخبارات العسكرية (٤) الأمن الرئاسي (٥) أمن الرئيس (٦) الأمن الخاص (٧) الأمن الوقائي في الضفة (٨) الأمن الوقائي في غزة (٩) الدفاع المدني (١٠) الأمن الوطني (١١) الأمن السياسي (١٢) الشرطة البحرية (١٣) القوات الخاصة، وكلها تعمل لحماية العدو الصهيوني والإتفاقات الموقعة معه!.

فلسطين بهذا الوضع أليست بحاجة إلى «خميني جديد» يعيد إليها الروح والثورة التي انتزعت منها من قبل «الصهاينة العرب»، و «الصهاينة اليهود»!.

ثالثاً: الإمام في فلسطين:

«حركة الجهاد» و «حزب الله»: الترجمة الحقيقية المعاصرة للإمام الخميني في فلسطين.

إن الحديث عن «الإمام» و «فلسطين»، يستحضر إلى الذاكرة الإسلامية الحية، مباشرة: الشهيد الدكتور/ فتحي الشقاقي الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين (١٩٥١ - ١٩٩٥)، فلقد كان رحمة الله عليه، سلوكاً، وفكراً، الترجمة الصحيحة والكاملة للإمام في فلسطين، ولقد آن للأمة أن تعلم ذلك جيداً، وبشكل واضح، قاطع.

لماذا؟.

لأن الشقاقي، المسلم السُني المذهب، كان أول من كتب بالعربية عن «الخميني»، وقبل أن تنتصر وتستقر ثورته وأعلن - من القاهرة - وعبر خمس عشرة دراسة وكتابٍ واسع الإنتشار، طبع عدة طبعات عن دار الإعتصام، وصُودر في شهر فبراير ١٩٧٩، أن الخميني هو «الحل الإسلامي والبديل»، فلسطينياً وعربياً وإسلامياً، واعتقل عدة أشهر في سجن القلعة بالقاهرة على ذمة هذا الفكر، ولم يكتف بالقول، بل استتبعه في تواصل سياسي وإنساني كبير مع ثورة الإمام، ومن داخل فلسطين، فأسس «حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين»، لترجمة رسالة الإمام ورؤيته عن حتمية الجهاد المسلح للغدة السرطانية إلى فعل يومي مباشر، قاد عملياً إلى الإنتفاضة الفلسطينية وإلى إعلاء خط المقاومة والعمليات الإستشهادية وخط طريقها بالدماء.

إن الشقاقي إذاً وحركته الجهادية وفكره المتواصل ودمه الزكي الطاهر، وبكل وضوح، كان الترجمة الأولى والصحيحة لخط الإمام ورؤيته ورسالته عن فلسطين، وعن ضرورة الجهاد لاستئصال هذا الوجود من أقدس أرض إسلامية قاطبة.

تلك كانت الترجمة الأولى... للإمام، من داخل فلسطين، وهي ترجمة ما زالت قائمة ومستمرة ورغم أنه قد لحق بها ترجمات أخرى من داخل الوطن المحتل نعلمها جميعاً إلا أن الجهاد الإسلامي ورسالة الشقاقي كانت الأساس والمنبع والدور الصحيح والتاريخي.

توازت معها، وأبدعت وأينعت، ترجمة أخرى رئيسية تميزت عن كل ما عداها من تجارب، حين امتزج فيها «المشهد الحسيني» بكربلاء الجديدة في الجنوب اللبناني، إنها ترجمة حزب الله ومقاومته الإسلامية المجاهدة طيلة السبعة عشر عاماً الماضية ١٩٨٢ - ١٩٩٩.

لا نبالغ إذاً عندما نقول إن على باحثينا، وعلى أمتنا، عندما تريد قراءة صحيحة لموقف الإمام وفكره تجاه فلسطين، أن تطالع ذلك في تجربتَيْ حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين... ورحلة مؤسسها المعبدة بالدم، وتجربة حزب الله ومقاومته الإسلامية التي قدمت أكثر من ألف ومئتي شهيد في كربلاء الجديدة بالجنوب... مضافاً إليها تجارب إسلامية ووطنية أخرى، مثل حماس!.

إن الإمام... هنا كان ولا يزال حاضراً، وبقوة ولا تحتاج قراءة تأثيراته العميقة إلى إثبات، فها هي كلماته وتعاليمه ورسالته ودعمه، تتواصل وتؤثر وتخلق واقعاً جديداً، مجاهداً، يضع فلسطين في مركز الوعي والفهم وعلى سلم أولويات المسلمين، ويرتقي مقامها، عند الإمام وعند من حملوا رسالته من بعده، وترجموها في فلسطين وفي الجنوب اللبناني، إلى مصاف «الركن الإسلامي» الذي بتركه أو التفريط فيه، لا يستقيم إيمان المسلم الحق.

لقد أسرّ لي أخي الشهيد فتحي الشقاقي قبل استشهاده بساعات قليلة - وشرفني الله أني كنت معه في لحظاته الأخيرة - أن الإمام الخميني عندما التقاه عام (١٩٨٨) في طهران، جلس معه ثلاثة أضعاف المدة التي كان يجلسها مع رؤساء الدول، وأنه حذره وطالبه بتحذير رفاقه في «الجهاد الإسلامي»، من المخططات المبكرة لياسر عرفات ورفاقه، فطريقه سينتهي به إلى الوقوع بالكامل في الأسر الصهيوني... «فاحذروه.. احذروه».

لقد كان بعيد النظر، صادق الإيمان، شديد الحب لفلسطين وأهلها، شديد العداء للصهاينة، يهوداً أو عرباً.

هكذا كان الإمام.

وهكذا كانت ترجمته الحقيقية في فلسطين.

رابعاً: كيف نحيي رسالة الإمام في فلسطين مع الألفية الميلادية الثالثة:

بعد أيام يستقبل العالم العام الأول في الألفية الميلادية الثالثة، ورغم أننا من الذين لا يرون، في مثل هذه المناسبات أن ثمة فوارق جوهرية بين السنوات الأخيرة في الألفية الماضية (الثانية) والسنوات الأولى من الألفية الجديدة (الثالثة) وأن الأمر بالأساس، أمر قضايا متواصلة ومتداخلة وهموم إنسانية مترابطة، لا تعرف الفواصل أو الحدود الزمنية القاطعة، ألا أننا رغم ذلك نتوقع في تلك الألفية، وبخاصة في الربع القرن الأول منها، اندحاراً لمشاريع الإستكبار العالمي – وفقاً للتعبيرات الجادة والمتميزة للإمام الخميني – بقيادة الولايات المتحدة، ومن دار في فلكها من العملاء والتابعين.

وسوف يشهد هذا الإندحار مقدمات، قد يطول بعضها، وقد يتنوع، ولكن نتائجه آتية ولا شك، وهذه النتائج سوف تكون في صالح الإسلام والمسلمين، ولا نبالغ إذا قلنا إن فلسطين بكل تفاصيل مأساتها، وبكل أبعادها العقائدية والإقتصادية والسياسية، سوف تمثل «قطب الرحى» ونقطة المركز في هذه التحولات التي ستقود معسكر الاستكبار العالمي للانهيار.

وهنا بالأساس تأتي أهمية إعادة الإعتبار وإعادة الإهتمام بمواقف الإمام الخميني وفكره ومن ثم رسالته تجاه فلسطين، وضرورة إعادة الروح لمقولاتها، إعادة حقيقية وليست مظهرية، أو مرتهنة بظرفية ضيقة، وفي هذا الصدد نقترح ما يلي كبرنامج عمل إسلامي، ندعو جميع المخلصين من مؤسسات وأحزاب وهيئات وصحف إسلامية للأخذ به أو ببعضه، تحقيقاً للهدف المنشود، ووصولاً إلى فلسطين المسلمة والعربية حرة، ومطهرة من دنس الأعداء الصهاينة.

(١) ندعو إلى إعادة نشر تراث ومواقف الإمام وفتاويه تجاه العدو الصهيوني وتعميمها على الهيئات والجامعات والمنظمات العاملة داخل فلسطين وخارجها.

(٢) ندعو إلى إعادة الاهتمام أكثر بيوم القدس العالمي، وألا يكون مجرد يوم يقوم فيه الإخوة من المسلمين الشيعة، بالدور الجهادي السياسي فحسب، بل لا بد

أن يكون يوماً لكل المسلمين، بجميع مذاهبهم، فإذا لم تكن «القدس» هي نقطة اللقاء العقائدي والسياسي بين أهل السنة وأهل الشيعة وبينهما وبين أهل المذاهب الإسلامية الأخرى.. فأي «الأيام»، وأي القضايا، سوف تكون البديل؟!.

(٣) على إيران الدولة والثورة، ألا تلتفت لدعوات الغرب وضغوطاته التي تعزف على نغمة دعم «الإرهاب»، فأولاً، بقدر التميز والمخالفة في جميع النواحي السياسية والحياتية، لهذا الغرب - كما قال الإمام - بقدر قربنا من الإسلام، ألم يقل الإمام يوماً، ما معناه أنه إذا وجدتم أمريكا قد أعلنت رضاها عنكم في قضية ما، فراجعوا أنفسكم ومناهجكم، لأنكم ساعتها ستكونون قد أخطأتم في حق الإسلام وعليكم بتصحيح الخطأ!.

واليوم استقر الغرب - في مجمله - على قصر لفظ «الإرهاب» على الإسلام، بشراً وسياسات وعقيدة، وبالتالي ليس مستغرباً منه موقف العداء لإيران ولكل حركة مقاومة إسلامية، وما أسهل أن يستحضر قاموسه ومفرداته الخاصة ليلصقها «بالإسلام» والأولى منطقاً وعقلاً أن يلصقها بنفسه، فالإرهاب واقعاً وتاريخاً مرتبط بهذا الغرب الذي استعمر واستذل شعوب العالم الثالث بإجمال لأكثر من ثلاثمائة عام بأبشع وأخطر الوسائل الاستعمارية المعلومة للكافة. إذاً، ينبغي ألا تخضع إيران ما بعد الإمام، للابتزاز الغربي، بدعوى أن ذلك يبرئها من تهمة ممارسة أو مساندة الإرهاب، والذي هو شرف ينبغي التمسك به، لأنه يعني مباشرة الإسلام، وفقاً للفهم الغربي القاصر والظالم.

(٤) على جميع المخلصين لخط الامام، السائرين عليه، في شرقنا الإسلامي أن يتمسكوا برسالة الإمام القائمة على الدعم اللامحدود معنوياً ومادياً لحركات المقاومة للعدو الصهيوني، وأخص بالتحديد هنا: حزب الله، حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، حركة حماس، حركات المقاومة العربية الأخرى المناوئة لنهج التسوية، حركات مقاومة التطبيع في البلاد العربية والإسلامية على اختلافها. فبهذه المساندة تتحقق رسالة الإمام، وتستمر معنا في الألفية الميلادية الثالثة، وبدونها نفتقد جوهر

هذه الرسالة، وتضيع معالمها.

(٥) على المتمسكين برسالة الإمام والسائرين على دربه، أن يرسخوا عبر أساليب نضالهم للصهيونية؛ وحدة الأمة، وأن يضربوا - مثلما فعل الإمام - النموذج في تجاوز فقه الاختلافات والإحَن والتمذهب الضيق، فلا معنى لكلمة (شيعي) أو (سني) وهذا اليهودي الصهيوني يحتل أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ويصادر تاريخنا الاسلامي كله (بشيعيته وسنيته) إن إعلاء مفاهيم ما نسميه «بفقه التجاوز» للمذاهب وخلافاتها الضيقة، مطلوب الآن وبقوة ونحن ندخل هذه الألفية الميلادية الثالثة في وجود «غدة سرطانية» تمتص رحيق الحياة من قلب الأمة في فلسطين !!.

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذا المعنى الكبير لفقه التجاوز المقاوم، قد جسده بحق، وعبر ١٧ عاماً من المقاومة، حزب الله في لبنان، فأطلق طاقات الأمة من حوله، لبنانياً وعربياً وإسلامياً، ويندر أن تجد عربياً حتى من غير المسلمين إلا وينظر ويتعامل بتقدير بالغ مع نموذج حزب الله وما أسسه من مفاهيم وقيم للتجاوز المذهبي، وصولاً إلى تجسيد وحدة الأمة عبر فقه المقاومة والجهاد.

وآن لنموذج حزب الله في هذا المجال مع الألفية الثالثة أن يُطور ويُعمم وينتشر، وهذه رسالتنا كمسلمين، في مواجهة التجمع الصهيوني والشيطان الأكبر الذي يسانده، وبإدراكنا لها والعمل من أجلها نحقق وصية الإمام، ورسالته الإسلامية المعاصرة التي تستمد جذورها وروعتها من جده الإمام الحسين، والرسول الكريم محمد (ص).

(٦) على المتمسكين بخط الإمام من جميع المذاهب الإسلامية، وبخاصة في الدول العربية، أن يعيدوا ترجمة المقولة المعبرة التي وصف فيها الإمام الولايات المتحدة وسياساتها في منطقتنا بـ «الشيطان الأكبر» إلى واقع فعال، وأن يربطوها مباشرة بالرؤية المعبرة لمرشد الثورة السيد آية الله خامنئي والتي تتلخص في أن على «الولايات المتحدة أن تغير سياستها في الشرق الأوسط و «تتوب» قبل أي حوار

مع إيران أو مع المسلمين الصادقين في إسلامهم»؛ (الحياة – جهاد الخازن – ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٩). إن ترجمة هذه المعاني الواضحة في رفض الاستكبار الأمريكي الغربي، إلى سلوك وسياسات جادة، يتطلب من أمة الإسلام أن تتحرك، وأن تنهض وأن تقاوم ... وليس سوى فلسطين .. ما يصلح كراية وعنوان لهذه النهضة ولتلك المقاومة، وليس سوى جهاد الإمام ومن تلاه من شهداء الثورة في فلسطين ما يصلح كمعبِّر فكري تنطلق عليه تلك المقاومة.